

وأثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية

وهو البحث الذي قدمه

الدكتور
محمد معروف الدواليبي

الى المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبويه

الذي اقامته دولة قطر

في ٥ - ١٠ محرم سنة ١٤٠٠ هـ .

الموافق ٢٤ - ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٩ م .

الناشران

دار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

مكتبة المدرسة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

موقف الإسلام من العلم

وأثر الرسالة الإسلامية في الحضارة الإنسانية

وهو البحث الذي قدمه

الدكتور
محمد معروف الدواليبي

الى المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبويه

الذي اقامته دولة قطر

في ٥ - ١٠ محرم سنة ١٤٠٠ هـ .

الموافق ٢٤ - ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٩ م .



الناشرون :
دار الكتاب المصري
القاهرة
دار الكتاب اللبناني
بيروت

موقف الإسلام من العلم

وأثر الرسالة الإسلامية
في الحضارة الإنسانية



دار الكتاب المصري

القاهرة ج.م.ع

٣٢ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦

ت ٧٤٤١٦٨/٧٥٤٣٠١ - برقيا (كتامصر)

TELEX No 2336 CAIRO
A.T.T 134 K.T.M.

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - برقيا (كتالبان)

تليفون ٢٥١٢٩٤ ٢٣٧٥٣٧

TELEX No 22865 K.T.L
LE BEIRUT



الطبعة الاولى

١٩٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

١ – يسرنى أن أستجيب للمساهمة فى المؤتمر الثالث عشر للسيرة والسنة النبوية الذى تقرر فى الدوحة عاصمة دولة قطر العزيزة . وأشكر القائمين على تنظيم هذا المؤتمر ، وعلى إحاطتهم بمعظم المواضيع الهامة التى اقترحوها على الباحثين لهذه السنة ليتألف من مجموعها خير مجموعة علمية حديثة للدعوة إلى الإسلام ، وللتعريف به عن طريق سيرة رسول الإسلام وسنته لخير بنى الإنسان . كما أشكر الدولة القطرية فى شخص أميرها العظيم سمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى على احتضانها لهذا المؤتمر ، واستضافتها له ، ولا عجب فى ذلك لما عرف فى شخص صاحب السمو أمير البلاد وإخوانه ورجال حكومته من روح إسلامية عظيمة يحرصون بها على التجديد دوما لدعوة الإسلام ، فجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين .

موضوعنا وخصائص الإسلام من أجل نظام جديد للحياة

٢ – وبعد فقد اخترت لكلمتى موضوعين من أصل أربعة

وأربعين موضوعا اقترحتها اللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر ، جمعت بينها لأجعل منها موضوعا موحدا ، وشاملا لعرض أعظم خصائص الإسلام من أجل « نظام جديد للحياة الإنسانية المتطورة اليوم » ، وذلك من خلال الموضوع المقترح الأول وهو : « أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية » ، ومن خلال الموضوع المقترح الخامس عشر وهو : « الرسول **وموقفه من العلم** » ، ووضعتهما **تحت العنوان اعلاه : « موقف الاسلام من العلم واثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية** » ، **مبتدئا بموقف الاسلام من العلم ، وذلك لان الدعوة الى العلم** فى الإسلام « تؤلف الميزة الأولى التى امتازت بها دعوة الإسلام على غيره من الأنظمة والمنظمات والأديان التى عرفتها الإنسانية حتى اليوم ، إذ ان الإسلام هو **نظام الحياة الوحيد الجديد** حتى اليوم الذى أوجب طلب العلم على كل مسلم ومسلمة ، وجعله من مقتضيات الإسلام ، سواء كان المسلم ذكرا أو أنثى ، عملا بقوله عليه الصلاة والسلام : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** » ، وذلك للنهوض بمستوى الإنسان لأول مرة فى التاريخ على أساس من العلم والإيمان .

٣ – ولماذا « النظام الجديد للحياة الإنسانية المتطورة اليوم » ؟ . . .

– وما هى « أعظم المشكلات الإنسانية » التى أقلقت مجتمعاتنا الدولية اليوم ؟

– وهل عجزت الأنظمة الدولية القائمة اليوم عن وضع الحلول الناجعة لهذه « المشكلات الإنسانية الأساسية » حتى بتنا فى حاجة ماسة إلى « نظام جديد للحياة الإنسانية » ؟ . . .

– وما هو موقف نفس أصحاب هذه الأنظمة السائدة فى عالم اليوم تجاه هذه الحاجة إلى نظام جديد للحياة ؟ . . .

– وما هى « المقاييس العلمية التقدمية لهذا النظام الجديد فى مفهوم علماء هذه الأنظمة القائمة وخبرائها ؟ . . .

– وهل يستجيب الإسلام اليوم لهذه المقاييس التقدمية ؟ . . .

– وماذا كان موقف رسالة الإسلام من هذه المقاييس من

قبل حينما جاء الإسلام يدعو العالم إلى تكوين الإنسان الجديد وفقا لنظامه الجديد ، ومن أجل حياة إنسانية جديدة عالمية ؟

هذه هى مجمل الأسئلة التى أردت ـ من خلال الإجابة عليها أولا أن أجعل منها حجر الزاوية لموضوعنا ـ وذلك ليكون موضوعا لاصقا بحياتنا التى نعيشها اليوم ـ لا موضوعا أدبيا للذكرى والتاريخ .

تقدم العلوم والمفاهيم الجديدة للحياة ومشكلاتها

٤ – ومما لاشك فيه أن حضارة عصرنا الحاضر قد تميزت عما سبقها من العصور الحديثة ، فضلا عما سبقها من الحضارات القديمة ـ باكتشاف الكثير من القوانين العلمية الكونية القطعية التى لم تعرف من قبل ، أو لم يجزم بها سابقا فى بعض الحالات على الأقل .

وكان من نتيجة هذا التقدم أن اتسعت آفاق العلوم ، وأن اكتشفت قوانين الذرة العجيبة ، وأن تطورت التكنولوجيا تطوراً سمح للإنسان أن يطير فى الفضاء ، وأن ينزل على القمر .

وأن يفتح الطريق لما هو أبعد من القمر بآلاف السنين ، مما قد تصاغرت معه رقعتنا الأرضية ، وزالت به الحدود ، وامتزجت بحكم ذلك الشعوب ببعضها ، وتشابكت مصالحها ، من غير فرق بين أقصى الشرق وأقصى الغرب فى الأرض .

٥ - وكان من لوازم هذا التقدم فى العلوم والتكنولوجيا ، وزوال الحدود فيما بين الشعوب البشرية وتشابك مصالحها ، أن ظهرت مفاهيم جديدة فى الحياة الإنسانية العالمية ، وأن عجزت الأنظمة السياسية والاقتصادية السائدة فى العالم أن يحتفظ كل منها لنفسه ووفقا لأنظمته القومية المحلية بما كان قد استأثر به من مصالح ممتازة على حساب الأمم والشعوب الأخرى دون أن يعرض سلامه وسلام الآخرين إلى الخطر .

وهكذا ظهر الصراع اليوم واشتد بين الأقوياء أنفسهم من أجل حماية كل منهم لمصالحه الممتازة الخاصة ، مما قد عرض سلام الأرض قاطبة إلى الزوال وأفقد الإنسانية كلها الشعور بالأمن والاستقرار . ولذلك أصبحت « الدعوة إلى السلام » أنشودة الجميع لا فرق بين شرق وغرب ، ولا بين قوى

وضعيف ، وخاصة فى ظل وسائل التدمير الرهيبة الجماعية الحديثة التى يملكها كل من المتصارعين الأقوياء .

موقف الأمم المتحدة من هذه المشكلات

٦ - وهكذا فقد تداعت الأمم المتحدة إلى جلسة استثنائية عام ١٩٧٤ أملا بالوصول إلى حلول نهائية للمشكلات الإنسانية العالمية ، وذلك من أجل صيانة « السلام العالمى » المهدد بالخطر . وقد اعتبر هذا التهديد اليوم من أعظم مشكلات الإنسانية الأساسية . غير أن تضارب المصالح فيما بينهم قد حال دون الوصول إلى حلول ما،وهذا ما حملهم جميعا . من شرق وغرب ، على الاعتراف :

- بأنه لا أمل بالوصول إلى حلول صحيحة فى ظل الأنظمة المتضاربة السائدة فى العالم اليوم .
- وبأن العالم قد تقدم اليوم : فكريا ، وعلميا ، وتكنولوجيا ، وزالت بينه الحدود ، ووجب أن يزول معها كل تمييز أنانى ما بين الشعوب والأفراد ، والمصالح .

– وبأنه يجب وضع نظام اقتصادى عالمى حديث تراعى فيه جميع هذه المعطيات الجديدة ، ووفقا لقواعد جديدة عالمية للمجتمع البشرى الجديد .

٧ – وبعد هذه الاعترافات انفضّ هذا الاجتماع الاستثنائى الأول فى موضوعه على موعد مع اجتماع استثنائى آخر فى عام **١٩٧٥** لتتقدم كل دولة من دول الأمم المتحدة باقتراحاتها الصالحة لإقامة النظام العالمى الجديد من أجل معالجة المشكلات الإنسانية و « صيانة السلام العالمى » من الخطر وفقا لمبادىء هذا النظام وقواعده الجديدة .

خبراء الأمم المتحدة والدعوة لنظام جديد

٨ – غير أنهم فى اجتماعهم الاستثنائى الثانى فى عام **١٩٧٥** قد قرروا إحالة الموضوع وما قد ورد حوله من اقتراحات إلى الجهاز العلمى للأمم المتحدة ، وهو منظمة « اليونسكو » لتضع مبادىء هذا النظام وقواعده الجديدة التقدمية . وقد صدرت أخيرا توصيات « اليونسكو » فى ذلك بعد كثير من الدراسة الجدية الهادفة والتعمق فيها ، وهى متوجة بتواقيع خبراء العالمين

الاشتراكى والرأسمالى ، وتتلخص بالمبادىء والقواعد التالية :

أولا – وجوب مراعاة وحدة الأسرة البشرية من غير تمييز بينها فى الحق بالحياة الكريمة .

ثانيا – ووجوب مراعاة وحدة مصالحها من غير تمييز فيها .

ثالثا – ووجوب وحدة التخطيط لاقتصادها من غير تمييز لفريق على حساب فريق آخر .

رابعا – ووجوب العدل بينها على أساس من الحق والقانون .

٩ – وهكذا فقد وضع لنا خبراء الأمم المتحدة وأجهزتها العلمية اليوم تلك المبادىء والقواعد الجديدة للأسرة البشرية المتطورة المتقدمة ، واتخذوا منها تلك المقاييس الواضحة للنظام العالمى الجديد . ذلك النظام الذى ظل العالم ينشده ـ على عجز ـ على ألسنة فلاسفته ومحبى الإصلاح منذ أقدم العصور حتى اليوم .وخاصة فى عهد فلاسفة اليونان ، ومدينة أفلاطون الفاضلة . . .

– فما هو موقف الإسلام من الدعوة إلى نظام عالمى إنسانى جديد ؟

– وما هو موقف الإسلام من هذه المبادىء والقواعد التقدمية التى وصلت إليها الأمم المتحدة أخيرا عن طريق أجهزتها العلمية ؟

– وهل يصلح الإسلام أن يكون بمبادئه وبقواعده التى قامت عليها رسالته منذ ظهورها هو التطبيق العملى لهذا النظام البديل للأنظمة السائدة اليوم ؟

– وماذا كان لرسالة الإسلام من أثر فى الحضارة الإنسانية ومفاهيمها ؟ . . .

موقف الإسلام من الدعوة لنظام جديد

١٠ – وللإجابة على ذلك نرى أن نظام الإسلام الذى فوجئت به الأمم والشعوب قبل أربعة عشر قرنا كنظام جديد أيضا « للحياة البشرية عامة » لا تستبين أبعاده كنظام بديل للأنظمة العالمية السائدة اليوم ، إلا بالعودة قليلا وبإيجاز إلى استعراض ما قد كانت عليه حياة تلك الأمم والشعوب من

مساوئ قبل الإسلام ، واستعراض أوجه الشبه بينها وبين حياة عالمنا الحاضر ، وماذا كان موقف الإسلام منها ؟ . . . وما هى المبادىء والقواعد الدائمة التى أعلنها الإسلام علاجاً لتلك المساوىء من أجل حياة جديدة كريمة للجميع ، ومن أجل صيانة السلام فيها ؟ . . .

١١ – وإن نظرة سريعة على حياة تلك الأمم والشعوب قبل الإسلام ، تقودنا فوراً إلى القول المشهور فى مثل هذا المقام ، وهو ما أشبه الليلة بالبارحة .

وبالجملة فإن حياة تلك الأمم والشعوب لم تكن قائمة إلا على مصالح الجماعات المحدودة فى العشيرة والقومية . ولهذا لم يكن من الممكن أن ينظر من خلال ذلك إلاّ إلى المصالح الضيقة لتلك العشيرة أو القومية . تلك المصالح المتنافرة ، والقائمة على الأنانية والاستئثار والامتياز فى الحياة لدى كل من الشعوب على حساب الآخرين . وهذا ما قد وضع العالم القديم فى حروب بربرية دائمية ، وخاصة الحروب الدولية الأخيرة التى أدركها الإسلام حين ظهوره ، وكانت أيضا فيما بين الشرق

القديم الفارسى والغرب القديم اليونانى أو البيزنطى ، متسلسلة منذ عهد الاسكندر اليونانى مع الفرس قبل بضعة قرون من المسيح ، إلى عهد هرقل مع الفرس أيضا فى القرن السابع بعد المسيح ، حين ظهر محمد عليه الصلاة والسلام بدعوته إلى الإسلام ، مناديا فى قومه أولا ، ثم فى العالم أجمع ، بدعوة القرآن الكريم ضد تناحر الشعوب :

– قائلا : « يا أيها الناس . . . ادخلوا فى السلم كافة » . . .

– ومعلنا على العالم أجمع قول الله رب العالمين :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

ومناديا بأعلى صوته أيضا بقوله عليه الصلاة والسلام : « **الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله** » .

– وداعيا الجميع على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وأديانهم

إلى التعاون الواجب من أجل خير الإنسان عملاً بقول الله سبحانه وتعالى :

وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ

– وضامنا فى كل ذلك « حرية العقيدة » عملا بقوله سبحانه وتعالى « لا إكراه فى الدين » .

وقضى بذلك وفقا لعقيدة الإسلام على كل تعصب واضطهاد فيما بين العقائد والأديان والشعوب .

١٢ – ولقد جاءت هذه الدعوة الإسلامية العالمية تهز أركان نظام العالم القديم البالى ، فى تعاليمه وشرائعه وتقاليده غير الإنسانية التى قضت على جميع معانى وحدة الأسرة الإنسانية ، والتى قضت على كرامة الإنسان وعلى حقه فى الحياة ما لم يكن من فئة معينة ، ومن طبقة معينة .

وقد سجلت هذه الدعوة الجديدة سبقا فعليا على جميع دعوات عالمنا الحديث فى هذه المعانى : حيث دعت العالم قبل أربعة عشر قرناً إلى نظام مجتمع إنسانى حديث متقدم بكل ما فى

الحداثة والتقدمية من جدة وسمو ، وذلك بالدعوة صراحة إلى نوع جديد من الحياة حيث تتساوى فيها جميع الأعراق والأجناس والشعوب فى الحياة الكريمة وفى المصالح البشرية عملا بنص القرآن نفسه كما سوف نرى ، معتبرة أن ذلك النوع من الحياة المعهودة غير الإنسانية ، مما قد تعارف عليه الناس من قبل غير جدير باسم الحياة .

١٣ – وضمانا لهذا النظام الجديد للحياة الإنسانية ، فقد أقامت الدعوة الإسلامية لذلك شريعة تمتاز على جميع ما عرفته الشرائع القديمة ، بل والحديثة أيضا ، من ضوامن ، وتتلخص بالمبادىء العالمية التالية :

أولا – بأنها **شريعة عالمية** تنظر إلى شعوب البشرية على أنها أسرة بشرية واحدة .

ثانيا – بأنها **شريعة إنسانية** لا تمايز فيها ما بين إنسان وإنسان فى الكرامة الإنسانية .

ثالثا – بأنها **شريعة ترعى مصالح الحياة الإنسانية المتجددة** من غير جمود فيها على زمن أو مكان ، وأنه لا

فضل فيها لإنسان على إنسان ، ولا لشعب على شعب فى حقهم جميعا فى الحياة الكريمة .

رابعا – بأنها قد **شددت على إقامة العدل** وجعلته أساس الملك تبعا للحق ، من غير امتياز فيه للشريف على الوضيع ، ولا للغنى على الفقير ، ولا للقوى على الضعيف . ورضى الله عن أبى بكر الخليفة الأول فى الإسلام الذى قال حين بويع بالخلافة : أيها الناس ! إن القوى عندى ضعيف حتى آخذ منه الحق للضعيف ، وإن الضعيف عندى قوى حتى آخذ له الحق من القوى .

١٤ – وبذلك نقف فى دعوة محمد الإلٓهية أمام خصائصها ومميزاتها . وأمام إصلاحاتها لنظام العالم القديم البالى فى مفاهيمه وفى تناحره ، وفى امتيازات شعوبه وأفراده بعضهم على بعض ، تلك الإصلاحات التى قال فى بعضها ادوار مونتيه أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة جنيف فى مقدمة كتابه لترجمة القرآن : « إن إصلاحات محمد قد حققت تقدمات ذات أبعاد غير متناهية ،

وذلك لدرجة تجعل محمدا فى عداد أكبر العظماء الخادمين للإنسانية . . . » .

١٥ – وهكذا فإن الإسلام بقواعده هذه قد أقام النظام الجديد للحياة الجديدة ، وذلك لتلتقى عليه جميع الأمم والشعوب تحت شعار الدعوة إلى الخير ، والتعاون على البر والتقوى . من غير عصبية ولا أنانية ولا امتياز لإنسان على إنسان . وفتح الإسلام فى كل ذلك باب الحوار السلمى مع أبعد الناس عن عقيدته قائلا تارة : وقولوا للناس حسنا ، وتارة : ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتى هى أحسن ، وتارة : وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتارة : المؤمن آلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

ترحيبنا بتلاقى الأمم المتحدة مع مبادئ الإسلام العالمية

١٦ – وإنه ليسرنا أن تلتقى جهود الأمم المتحدة وخبراؤها أخيرا مع نفس المبادىء والقواعد التى شرعها الإسلام ، وحرص على سيادتها لدى جميع شعوب الإنسانية منذ أربعة عشر قرنا . بل ما أعظم بهجتنا وحاجتنا اليوم إلى مجموعة عالمية

جديدة كالأمم المتحدة لتتبنى هذه المبادىء والقواعد كما تبناها العرب فى العهد النبوى وعهد الخلفاء الراشدين ، ولتقود العالم الإنسانى ضمن نظام عالمى تقدمى يعالج وقائع الصراع العالمى ومفاسده من أجل سلام إنسانى ، كما عالجها الإسلام على أسسه الواضحة أدناه :

- على أساس الدعوة إلى خير الناس من غير تمايز .
- وعلى أساس الدعوة إلى نوع جديد من الحياة تتساوى فيها مصالح الناس المتجددة من غير تفاضل .
- وعلى أساس تشديد قبضة العدل بالحق وبالقانون .
- وعلى أساس « الأمر بالمعروف » الذى تعارف عقلاء الناس فيه على أنه لابد لهم منه لصلاح حياتهم .
- وعلى أساس « النهى عن المنكر » الذى رأى فيه العلماء والحكماء وأهل الفكر أنه شر لا تستقيم معه الحياة الإنسانية لأحد .

وبذلك فقط نستطيع أن نضع حدا للأثرة وحب الذات ، وللتمايز فيما بين الأفراد والطبقات والشعوب فى حقهم جميعا

بالحياة الكريمة على نحو ما قد نادى به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والإسلام ، وذلك بإعلانه إعلانا جازما : بطلان التمايز فيما بين البشر بجميع أجناسه وشعوبه ، وبوضعه لهم جميع الأحكام القانونية لضمان تلك المبادىء والقواعد الإنسانية الحيوية العالمية .

مميزات دعوة الإسلام في النظام الجديد العالمي

١٧ – هذا ولابد لنا هنا من الإشارة إلى ما قد امتازت به دعوة الإسلام لمبادىء هذا النظام الجديد للحياة على دعوة خبراء الأمم المتحدة اليوم ، وما ذلك للانتقاص مما قد وصل إليه هؤلاء الخبراء المحترمون وقد ابتهجنا به ، ولكن من أجل ضمان نجاح الدعوة لهذه المبادىء والقواعد للنظام الجديد .

١٨ – فلقد أقيمت دعوة الإسلام لهذه المبادىء والقواعد الجديدة لنظام الحياة الإنسانية على أساسين كانا هما دعامة النجاح :

أولا – أنها دعوة متفرعة عن العقيدة الدينية .

ثانيا – أنها دعوة متفرعة عن فريضة العلم ، كل العلم ، على كل مسلم ، ذكرا كان أو أنثى ، وخاصة الدعوة فيه إلى تطوير التكنولوجيا من غير حد فيها ، وذلك للنظر الواجب على كل مسلم بنص القرآن الكريم فيما قد حوته السموات والأرض عملا بقوله سبحانه وتعالى :

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

١٩ – أما دعوة خبراء الأمم المتحدة اليوم إلى تلك المبادىء فهى أولا دعوة تحت ضغط المصالح المادية المتنافرة ، وثانيا أنها كانت انسياقاً وراء ما قد تركه انتشار العلم والتطور التكنولوجى من أجل المصالح المادية فى تطوير مفاهيم البشرية عامة من غير قصد إليها ، بل إن انتشار هذا العلم كان اليوم على الرغم من إرادة القابضين على مفاتيحه والحريصين على الاستئثار به وبمنافعه دون بقية الناس أجمعين .

وشتان ما بين الدعوتين : فالدعوة الإسلامية لذلك النظام الجديد الإنسانى متفرعة عن إيمان المسلم أولا ، كما هى متفرعة

ثانيا عن فريضة الإسلام للعلم على كل مسلم من غير استثناء . ومنذ اللحظة الأولى فى الدعوة إلى الإسلام . لا عن الانسياق وراء انتشار العلم من غير قصد .

٢٠ – ولذلك فإن المسلمين المخلصين لإسلامهم يتقبلون اليوم بصدق ومن غير تردد الأخذ بهذه المبادىء إذا صحّت عزيمة الأمم المتحدة فى ذلك ، وصدقت فيها النوايا ، وذلك لما للدين من سلطان على النفوس فوق سلطان القوانين . ولما كان موضوعنا هنا قاصرا على موقف الإسلام من العلم أولا ، وعلى أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية ثانيا من أجل نظام إنسانى عالمى جديد ، فإننا ندع هنا موضوع الناحية الإيمانية بعد أن أشرنا إليها لأهميتها ، لننتقل إلى شرح موقف الإسلام من العلم أولا . ثم إلى أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية ومفاهيمها . وذلك بعد أن اتضح لنا أن دعوة الإسلام من قبل ومن بعد إنما هى دعوة إلى إقامة نظام عالمى من أجل حياة جديدة إنسانية تقوم على كرامة الإنسان فى كل مكان ، ومن غير تمييز بين الأفراد والأقوام كما ذهب إليه خبراء الأمم المتحدة اليوم ، وكان ذلك حجر الزاوية فى موضوعنا الآن .

١٨ – وقبل الخوض فى موقف الإسلام من العلم كدين ، لابد لنا من استعراض ما قد رسخ لدى علماء اليوم فى الغرب من مفهوم للدين متناقض تماما مع مفهوم الدين فى الإسلام .

فلقد ذكر علماء الغرب تعاريف كثيرة للدين بلغت المئة ، وقد اسقطوا منها ثمانية وتسعين تعريفا ، واحتفظوا منها بتعريفين مفضّلين . حيث قالت الموسوعة الفرنسية الكبرى للعلوم والآداب والفنون فى كلمة الدين : « إن أحسن هذه التعاريف قبولا هو التعريف الذى وضعه كوبليت دالفييلا Goblet d'ALVIELLA ، حيث قال :

« إن الدين هو الطريقة التى يحقق بها الإنسان صلاته مع قوى الغيب العلوية » .

ثم ذكرت الموسوعة التعريف الآخر للدين فقالت : « وقد وضع جامس دار ميستيتر James DERMESTETER تعريفا فقال : إن الدين هو ما يشتمل على كل معلوم وكل سلطة لا تتفق والعلم » ! !

٢٢ – وإننا إذا نظرنا إلى مفهوم الدين فى القرآن الكريم ، رأينا أن « الإسلام الذى سماه القرآن « دينا » يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم « الدين » المنقول عن علماء الغرب أعلاه ، والمسيطر على مفاهيم أكثر الناس فى هذه الأيام من المتأثرين بثقافة الغرب .

ذلك أن « الإسلام » ، وإن سماه القرآن دينا عملا بآخر آية نزلت منه وهى قوله تعالى :

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا

هو رغم ذلك قد تجاوز فى أسس دعوته ومقاصده تلك الحدود الضيقة وغير المعقولة التى وضعها علماء الغرب للدين ، أو وضعوا الدين فيها .

٢٣ – فلقد تجاوز الدين فى مفهوم القرآن تلك الحدود أولا من « صلات الإنسان مع قوى الغيب العلوية » إلى حدود أخرى أعطاها نفس الاهتمام ، ألا وهى « صلات الإنسان مع الإنسان » . . . ثم فوق ذلك ، قد حمل المخاطبين به على

« الاحتكام » فى كل تلك الصلات مع الله والإنسان إلى « العلم والعقل والفكر » فقال القرآن الكريم فى ذلك تارة :
« ونفصل الآيات لقوم يعلمون » . وتارة « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .
وتارة «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» .

٢٤ – وإننا إنما لفتنا النظر إلى هذه الفوارق الأساسية ما بين مفهوم الدين فى القرآن ، وبين مفهومه لدى الغير ، لنتجنب بذلك أعظم خطيئة وقع فيها كثير من علماء الغرب فى نظرتهم إلى الإسلام وإلى شريعته ككل ، وحكموا عليه بالجمود وبعدم التمشى مع المصلحة والعلم ، وذلك بسبب ما عرفت عندهم أعلاه من مفهوم لمعنى الدين .

٢٥ – وبعد فإن موقف الإسلام من العلم لا تستبين عظمته إلا بملاحظة ما قد استقر لدى علماء الدين فى غير الإسلام ، فيما قبل الإسلام وبعد الإسلام ، من مقاومة وعداء للعلم مما عطل العقل ، وأفقد الإنسان أعظم ميزة يمتاز بها الإنسان على الحيوان .

٢٦ – ولعل العقائد « الدَّوِّية » التى انتشرت فى الصين منذ

القرن السابع قبل الميلاد على يد فيلسوفها « لَوْ – دَزَه » (٦٠٤ – ٥١٧ ق . م .) تعطينا فكرة صحيحة عن مصدر العداء للمعرفة والعقل . ذلك العداء الذى استمر لدى الأديان حتى مطالع القرن الثامن عشر فى نهضة العالم الحديث حيث شجبت الكنيسة مواقف علماء الطبيعة والباحثين فيها من غير رغبة فى المناقشة على أساس العلم والعقل ، حتى كان ما كان من انفصال نهائى للحركة العلمية عن الدين ، وعدائها للدين ، وتسجيل تلك التعاريف لمفهوم الدين لديهم ضد العلم والعقل .

٢٧ – ويقول « لَوْ – دَزَه » مؤسس مذهب الدوية ، بل آله الدويين الذين عبدوه فيما بعد :

– « إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هنيئا سعيدا .

– « ثم حصل الناس « المعرفة » ففقدوا الحياة بالمخترعات ، وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخلقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة .

- « فالعاقل إذنْ هو من يبتعد عن هذا التعقيد الحضرى ، وهذا التيه المفسد : تيه القوانين والحضارة ، ويختفى بين أحضان الطبيعة .

- « وإن العلم ليس فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم » ! ! .

٢٨ - وهكذا نشأ هذا العداء للعلم . وتسرب إلى معظم العقائد والأديان عبر العصور والتاريخ ، حتى كان منه ما كان فى أوربة وفى عصور النهضة الحديثة . من موقف الكنيسة تجاه العلم والعلماء ، حتى أصبح الدين والعلم ضدين لا يجتمعان .

٢٩ - ولما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته ، وفاجأ العرب بالدعوة . إلى الإسلام . وإلى الخروج من حياة الجاهلية البغيضة . وإلى تكوين المجتمع الإنسانى العالمى على أساس السلم والوحدة والتعاون على الخير من غير تمايز بين القبائل والشعوب والأجناس ، لم يكن العرب عندئذ بعقائدهم الدينية الوثنية بخير من غيرهم فى التمسك بالعقائد والتقاليد الجاهلية غير المعقولة ، والحكم بالموت على من يدعوهم لتصحيح عقائدهم

الوثنية ، ونبذ أنماط حياتهم المألوفة . وكذلك فعلوا ، وحكموا على محمد بالموت ، وهم الذين حكموا له من قبل ودعوه بالرجل الأمين .

وهكذا نشأت المعركة بين الخير والشر . ودامت المعركة نحواً من خمسة عشر عاما انتصرت فيها دعوة الخير ، وظهر الحق ، وزهق الباطل . ولم تلبث الجزيرة العربية التى لم تعرف وحدة من قبل ، أن اتحدت كلمتها ، وقويت شكيمتها ، وانتقل فيها العرب بعد قليل جدا من الزمن من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم ، وكانوا فى قيادتهم الجديدة بعد جاهليتهم الأولى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

٣٠ – فأين هو السر فى هذا البعث الجديد الذى لم يسبق له مثيل من قبل لدى أمة من الأمم فى التاريخ ؟ . . .

والجواب على ذلك : إن السر يكمن فى أمرين :

أولا – فى شخص محمد صلى الله عليه وسلم الذى اختاره الله سبحانه وتعالى لدعوة الناس أجمعين إلى الإسلام ، وأعده بفضل منه لهذا الاختيار .

وثانيا – فى إقامة الله سبحانه وتعالى دعوة الإسلام على « إيجاب العلم على كل مسلم » ومخاطبة « العقل والفكر » فى جميع نواحى دعوة الإسلام .

٣١ – أما من حيث شخص محمد عليه الصلاة والسلام فإنه لم يقم بدعوته للإسلام كردود فعل فى نفسه على وضع خاص به لدى قومه ، يشكو منه ويثور من أجله ، فقد منحه قومه قبل دعوته لقب الأمين ، فلم يكن إذن ثائرا أو شاكيا منهم لشخصه . وكذلك كان شأنه بعد إعلان دعوته ، فقد عرض عليه قومه بعد إعلان دعوته الإسلامية الإصلاحية أن يتخذوه ملكا عليهم إن هو تنازل عن دعوته ، وذلك لما رأوا فيه من رجاحة العقل وكرم الأخلاق ، فأجابهم بكلمته العظيمة المشهورة من خلال عمه أبى طالب وسيد قريش حينذاك :

« والله ياعم . لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » . فدعوته إذن الإصلاحية للمجتمع الإنسانى فى جميع نواحى الحياة لم تكن استجابة لدوافع شخصية أو

لعوامل نفسية . وإنما استجابة لدعوة إلهية عالمية من أجل خير البشرية .

٣٢ - وأما من حيث إقامة دعوة الإسلام على « إيجاب العلم على كل مسلم » ومخاطبة « العقل والفكر فى جميع نواحى دعوة الإسلام » ، ففيها تكمن عظمة الإسلام لأنه وحده الذى قد انفرد من بين سائر الأنظمة والأديان بإيجاب العلم على الإنسان . وذلك لتحريره من مذلة الجهل والهوان ، ولينشئ الإسلام مجتمعا بشريا جديدا متقدما وكريما يليق بالمستوى الذى يجب أن يكون عليه الإنسان من غير تمييز ما بين إنسان وإنسان ، وذلك على نحو ما قد أخذ خبراء الأمم المتحدة يشعرون به فى هذه الأيام .

٣٣ - ولذلك كان أول مانزل من القرآن الكريم على رسوله العظيم هو قوله :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

وهكذا بدأ الإسلام إصلاحاته مبكرا بمعالجة الأمية فى أول
ما بدأه من معالجة شؤون المسلمين . وقد اعتبر « الأمية » منكرا
كما سوف ننقله قريبا ، ونادى « بإيجاب العلم » حيث قال عليه
الصلاة والسلام : **« طلب العلم فريضة على كل مسلم »** . إذ
من المعلوم أن العرب حين فاجأتهم دعوة الإسلام كانوا فى
كثرتهم الكاثرة أميين لا يقرءون ولا يكتبون . ولما وقع فى أيدى
المسلمين بعض الأسرى من رجال قريش فى غزوة بدر جعل
رسول الله صلى الله عليه وسلم فدية الكثيرين منهم تعليم الأميين
من المسلمين ، وفرض على كل أسير تعليم عشرة من المسلمين .
وكان ذلك فكاكا له من الأسر. وضرب لنا عليه الصلاة
والسلام بذلك مثلا لم يسبقه أحد لا من قبل ولا من بعد فى
العناية بنشر العلم على مثل ما جاء به الإسلام من فريضة العلم
لإصلاح مجتمعه الجديد ، وذلك من أجل إعداد الإنسان عن
طريق العلم أولا ليكون نواة لمجتمع إنسانى جديد مبدع ومتقدم
كريم . ولا ننسى أن الأمم المتحدة فى ميثاق حقوق الإنسان قد
عمدت إلى الاعتراف بحق كل إنسان فى الثقافة والتعليم .
ولكنها لم تفرضه . فظل ذلك وصية من الوصايا ! ! وشتان ما

بين الإيصاء بتعليم الإنسان ، وبين إعلان وجوب العلم كما أعلنه الإسلام . ألا ولذلك فليعمل العاملون .

٣٤ – ولذلك فلقد شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأكيد فريضة العلم فخطب يوما فهدد المتعلمين الذين لا يعلمون الجاهلين ، كما هدد الجاهلين الذين لا يسعون لاقتباس العلم من العالمين . فقد ورد فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خطب ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا ، ثم قال : **« ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ؟ . . وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ؟ . . . والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، . . وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون ، أو لأعاجلنهم العقوبة »** . ثم نزل . . فقال قوم . . من ترونه عنى بهؤلاء ؟ . . . قال : الأشعريين . . . هم قوم فقهاء ، ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب . . فبلغ ذلك الأشعريين ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ، ذكرت قوما بخير ، وذكرتنا بشر ، فما بالنا ؟ . . فقال : **« ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم**

وليأمرنهم ولينهونهم ، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون ، أو لأعاجلنهم العقوبة فى الدنيا . . . » فقالوا : يا رسول الله أنفطن غيرنا ؟ . . . فأعاد قوله عليهم ، فأعادوا قولهم : أنفطن غيرنا ؟ ! . . . فقال ذلك أيضا . . . فقالوا : أمهلنا سنة ، فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية :

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ

وهكذا فقد اعتبر رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأمية » منكرا تجب إزالته ، كما اعتبر « احتكار العلم » منكرا آخر تجب معاقبته .

٣٥ – ولذلك مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تعاليمه بدعو إلى العلم ، فيتوعد تارة كما مضى ، ويعد تارة . . . ويقول احيانا : « العالم والمتعلم شريكان فى الخير ، ولا خير فى سائر الناس » ، أى فى بقية الناس ممن ليس بعالم ولا بمتعلم .

بل قال طورا مفضلا الزيادة فى العلم على الزيادة فى العبادة كما جاء عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **فضل العلم خير من فضل العبادة** » .

وفى طور آخر يدعو إلى الزائد من العلم فيقول : « **ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى ، أو يرده عن ردى ؛ وما استقام دينه حتى يستقيم عمله** » ، وفى رواية : « **حتى يستقيم عقله** » .

٣٦ - ولقد كان لهذه الدعوة الإسلامية السامية إلى العلم ، وإعلان النبى عليه الصلاة والسلام : « **أن طلب العلم فريضة دينية على كل مسلم** » أثر فى نفوس المؤمنين عجيب ، إذ ان ذلك كوّن فيهم غراما بالتعلم ، وبعث فيهم اندفاعا لطلب العلم كاد يكون فريدا فى التاريخ . ولذلك قال كوستاف لوبون فى كتابه « مدنية العرب » : « إن الاندفاع الذى أبداه العرب فى التعلم كان مدهشا جداً ! . . . ولئن ساواهم فى ذلك كثير من الشعوب فلم يكن منهم فيما أظن من سبقهم . . . وكانوا إذا استولوا على مدينة وجهوا عنايتهم فى الدرجة الأولى إلى تأسيس

جامع وإقامة مدرسة . وإن هذه المدارس فى المراكز الكبرى كانت كثيرة دائما . . . وإن بنيامين الطليطلى Benjamin de Tulède المتوفى سنة ١١٧٧ روى لنا أنه رأى عشرين مدرسة من هذه المدارس فى مدينة الإسكندرية » .

٣٧ – وكذلك نرى أن العرب لم يمض على فتحهم لمصر خمسة قرون حتى بلغ عدد مدارس الإسكندرية عشرين مدرسة ، بينما أن الرومان لم يستطيعوا أن يؤسسوا فى مصر أكثر من مدرسة واحدة خلال سبعة قرون ، ثم لم يلبثوا أنفسهم أن أغلقوا تلك المدرسة بأمر من الأمبراطور جوستينيان كما هو معروف فى تاريخ جوستينيان .

٣٨ – وقال أيضا كوستاف لوبون : « وغدا مدارس التعليم البسيطة ، فإن المدن الكبرى مثل بغداد ، والقاهرة ، وطليطلة ، وقرطبة الخ . . . كان فيها جامعات علمية مجهزة بالمخابر ، والمراصد ، والمكتبات الغنية ؛ وبكلمة واحدة كانت هذه الجامعات مجهزة بكل المواد الضرورية للبحوث العلمية » .

ويقول كوستاف لوبون أيضا : « لقد كان فى اسبانية

وحدها سبعون مكتبة عامة . ولقد كانت مكتبة الخليفة الحكم الثانى فى قرطبة تحتوى كما ذكره المؤلفون العرب على ستمائة ألف مجلد ، كان منها أربعة وأربعون مجلدا للفهرس فقط . وبهذه المناسبة قد لوحظ بحق أن شارل الحكيم Charles le Sage لم يستطع بعد أربعمائة سنة من هذا التاريخ أن يجمع فى مكتبة فرانسة الملكية أكثر من تسعمائة مجلد ، وكاد أن يكون ثلثها فقط خارجا عن علم « اللاهوت » .

٣٩ – ولقد وجه العرب ، أول الأمر ، هذا النشاط العلمى نحو الفقه والحقوق الإسلامية .

غير أنهم لم يلبثوا حين اجتازوا حدود شبه جزيرة العرب أن اجتازوا أيضا باندفاعهم العلمى حدود الفقه والحقوق ، وتوجهوا بكل ما لديهم من شغف وغرام بالعلم إلى الإحاطة ببقية العلوم الناظرة فى السموات والأرض وما فيها ، عملا بقوله سبحانه وتعالى :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، »

وقوله : ﷻ ،

« وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

٤٠ – والجميل فى ذلك الاندفاع نحو التعرف على أسرار الخليقة أنه كان من شغف فى الاطلاع على الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى ، وعلى مبلغ قدرته فى خلق السموات والأرض وفى خلق أنفسهم وفيما على الأرض من دابة وحيوان ونبات . وهكذا فقد اندفع المسلمون فى النظر والبحث العميقين ، وفى ابتكار أدوات البحث فى أنفسهم وفيما يحيط بهم ؛ وكان غرضهم الأول الاستزادة من معرفة الآيات الدالة على عظمة الخالق ، وذلك قبل أن تشعرهم الحياة البسيطة حينذاك بالحاجة الملحة لاستكمال لوازم الحياة والمنافع المادية الخاصة المتطورة . ولذلك كتب للمسلمين بأسرع وقت السبق فى مختلف مجالات العلوم من فلك ، ورياضيات ، وطبيعيات ، وكيمياء ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، وهم بعد فى مطلع عصر الرسالة الإسلامية ، ورسالة الإصلاح العالمية الإنسانية ، وتركوا للحضارة الحديثة رصيدا هائلا من كتب وأبحاث

واكتشافات لولاها لما كان فى الإمكان للحضارة الحديثة أن تنهض وتصل إلى ما وصلت إليه . سلوا أهلها اليوم ، وعلى عجل ، وفقط : أين كان يمكن أن يكون قدر الحضارة الحديثة وتقدمها فى التكنولوجيا المتطورة وحساباتها الدقيقة المعقدة لولا اختراع الحضارة الإسلامية « النظام العشرى للأرقام » ، ولولا اختراعها « الصفر الإسلامى » الذى أصبح اليوم علما فى الحساب والرياضيات العالمية الحديثة على « الأرقام الحسابية » فى جميع اللغات الأجنبية باسم « الأرقام العربية » ترجمة لكلمتى : « شيفر آراب Chiffres arabes وأن كلمة « شيفر » هى كلمة « صفر » ، وقد سموا الأرقام بأجمعها باسم « الصفر » وذلك على طريقة تسمية الكل بأهم أحد أجزائه .

٤١ – ويقول كوستاف لوبون فى هذا الصدد من شغف العرب بالتعلم فى كتابه حضارة العرب : « لقد بلغ شغف العرب بالتعلم مبلغا عظيما جدا ، حتى أن خلفاء بغداد كانوا يستعملون كل الوسائل لجذب العلماء وأشهر الفنانين فى العالم إلى قصورهم ، وأن أحد هؤلاء الخلفاء بلغ الأمر منه حد إعلان

الحرب على قيصر القسطنطينية وذلك ليجبره على السماح لأحد الرياضيين المشهورين بالمجئ إلى بغداد والتعليم فيها ؟ . . . ولقد ازدحم فى هذه المدينة الكبرى الفنانون ، والأدباء ، من كل الأديان وكل البلاد ، ومن فرس ومن يونان ، وأقباط وكلدان ، وجعلوا من بغداد فى العالم المركز العلمى الحقيقى . ولقد كان الخليفة المأمون بن الرشيد ينظر إلى العلماء ، كما قال أبو الفرج ، كأنهم مخلوقات اختارهم الله لإكمال العقل ، فهم مشاعل العلم ، وهداة الجنس البشرى ، وبدونهم تعود الأرض إلى البربرية الأولية »

٤٢ – هذا ، ولقد أعجب كوستاف لوبون أيما إعجاب من هذا الشغف بالعلم الذى افتتن به العرب ، ولقد كان إعجابه أعظم أن رأى أن هذا الشغف منهم منبعث عن الدين نفسه ، ولذلك قال : « إن العلم الذى استخفت به جدا أديان أخرى قد رفع المسلمون من شأنه عاليا ، وإليهم فى الحقيقة ترجع هذه الملاحظة الصائبة : إنما الناس هم الذين يتعلمون والذين يُعَلِّمون ، وأما من عداهم فَمُضِرٌّ أو لا خير فيه » ، ولا أظنه

يعنى إلا ما جاء فى الحديث الذى نقلناه سابقا من قوله عليه الصلاة والسلام : « **العالم والمتعلم شريكان فى الخير . ولا خير فى سائر الناس** » . أى لا خير فى بقية الناس ممن ليس بعالم ولا بمتعلم .

٤٣ – وبعد فإننا لو أردنا أن نستمر فى شرح اهتمام الإسلام بالعلم . وبيان موقفه الفريد من تنوير العقل البشرى بالثقافة والبحث . وما كان للحضارة الإسلامية من فضل على الحضارة الإنسانية اليوم . لما اتسع الوقت لمثل هذا البحث الكبير الجليل . ولكن ما لم يدرك كله . لا يترك كله . وستكون لنا عودة إلى العلم ثانية فى الفقرات التالية المخصصة لبيان . « أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية » .

اثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية

٤٤ – لقد اتضح لنا فيما تقدم أن الدعوة الإسلامية جمعت بين خاصتين أساسيتين اثنتين لم تسبقها إليهما دعوة من الدعوات من قبل . ولا استطاعت أن تلحق بها فيهما أية دعوة أخرى حتى اليوم . ألا وهما :

أولا – أنها دعوة « لنوع جديد من الحياة » يتناسب مع
تقدم العقل البشرى ، ويقوم على وحدة الشعوب
البشرية فى الحق ، فى الكرامة ، وفى المصالح
الحيوية ، من غير تمييز بينها ، كما يقوم على أساس
اعتماد « السلام والعدل » بالحق فيما بين هذه
الشعوب .

ثانيا – أنها دعوة إيمانية قامت على « فريضة العلم » ،
وذلك للنظر فيما فى السموات والأرض وفى
الأنفس من دلائل علمية على الخالق الواحد
القادر الحكيم .

وإن هاتين الخاصتين قد جعلتا من الإسلام وحده حتى اليوم « أول حركة علمية حيوية تقدمية » لا يجد من تقدمها الدائم شىء من تطور الزمن – للقضاء على جميع الأنظمة البالية ، التى كانت ولا تزال تقلق الحياة البشرية من قبل ومن بعد حتى اليوم وقد اعتمد الإسلام فى ذلك على ما قد أقام عليه دعوته من مبادئ علمية عالمية إنسانية التقت معها أخيرا اليوم بحمد الله آراء خبراء الأمم المتحدة كما أشرنا إليها من قبل .

٤٥ – والسؤال الذى يرد علينا الآن هو : « هل تركت هذه الدعوة العظيمة التقدمية أثرا عمليا فى الحضارة الإنسانية الحديثة وفى مفاهيمها ؟ » . . وما هى تلك الآثار ؟ . .

٤٦ – وللجواب على ذلك بوضوح لا بد لنا من أن نعود قليلا إلى قاعدة « فريضة العلم » التى انفرد بها الإسلام وحده حتى اليوم كما تقدم معنا ، وأن نتعقب الآن بإيجاز الآثار المادية الملموسة التى لا شك فيها بأنها أثر لقاعدة « فريضة العلم » فى الإسلام ، وما قد تركته هذه الفريضة على المسلمين من رصيد هائل فى مختلف ميادين الثقافة وخاصة فى الميادين العامة التالية :

أولا – من الناحية العلمية بصورة عامة .

ثانيا – من الناحية الإنسانية .

ثالثا – من الناحية الاجتماعية .

رابعا – من الناحية الاقتصادية .

خامسا – من الناحية السياسية .

سادسا – وأخيرا من الناحية التشريعية فى كل ما تقدم .

غير أن التكلم عن أثر الرسالة الإسلامية فى هذه النواحى الحضارية كلها يتطلب مجلدات . ولذلك فإننا سوف نقتصر هنا على الكليات من هذه الآثار بمنتهى الإيجاز ، مع إعطاء حظ أوفر للناحية العلمية التى هى منطلق الحضارات الإنسانية وأساسها وموجهها .

من الناحية العلمية :

٤٧ – أما أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية اليوم من الناحية « العلمية » فسوف نعتمد فيها أيضا فقط على قليل من كثير مما قال به المحققون من علماء الغرب وفلاسفته أنفسهم ، وخاصة الفيلسوف الاجتماعى كوستاف لوبون فى كتابه « مدنية العرب » الذى توسع فى ذلك وأتى بكل شىء عجيب .

٤٨ – وكما تقدم معنا عن كوستاف لوبون ، وأنه أعجب كل الإعجاب بالشغف بالعلم الذى افتتن به العرب ، وأن إعجابه كان أعظم « أن رأى أن هذا الشغف منهم بالعلم الذى استخفت به أديان أخرى كان منبعثا عن الدين نفسه » ، فإنه

قد أخذ بعد ذلك يشرح « الطريقة العلمية » عند العرب ، ويبدى إعجابه بها وبما قد تركته من آثار أساسية فى تقدم العلم فقال :

« إن المكتبات ، والمخابر ، والأدوات ، هى مواد لا بد منها فى التعليم وفى البحوث . ولكن هذه الأشياء ليست فى النهاية إلا مواد وعناصر ، وإن قيمتها تتوقف فقط على الطريقة التى تستخدم فيها ، وإن الإنسان قد يستطيع أن يمتلئ من علوم الآخرين ويبقى مع ذلك غير أهل لأن يفكر بواسطة شخصه ، أو أن يوجد شيئا ما . وقد يستطيع أن يكون تلميذا من غير أن يقدر على أن يكون أستاذا » .

٤٩ – ثم قال كوستاف لوبون : « وإن الاكتشافات المشروحة فى الفصول الآتية : سوف ترينا الفائدة التى عرف العرب أن يستخلصوها من مواد الدراسة وعناصرها المجموعة بواسطتهم . وسوف نقتصر الآن على ذكر المبادئ العامة التى وجهت بحوثهم . . . فبعد أن جعلوا من أنفسهم تلامذة فقط ، متخذين من مؤلفات اليونان أساتذة لهم ، عرفوا بعد قليل أن

« الاختبار والملاحظة » هما أثمن من خيار الكتب . وأن هذه الحقيقة التى أصبحت اليوم من البديهيات ، لم تكن دائما كذلك : فإن علماء القرون الوسطى قد عملوا مدة ألف عام قبل أن يفهموها » .

٥٠ - ثم تابع كوستاف لوبون يقول : « إن الاختبار والملاحظة ، هما أسس الطرق العلمية الحديثة . ولقد أسند إلى باكون Bacon بصورة عامة فكرة وضع الاختبار مكان سلطة الأستاذ ، غير أنه يجب اليوم أن نعترف بأن هاتين القاعدتين إنما تعودان بصورة كاملة إلى العرب » .

« وإن هذا الرأى قد صارح به مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مخلفات العرب وبصورة خاصة هامبولد Humbold ،

فبعد أن برهن هذا الرجل الفذ من رجال الملاحظة وأثبت أن أعلى درجة فى العلم إنما تكون عندما تولد بنفسها وحسب إرادتها حقائق علمية وذلك بواسطة الاختبار ، أضاف قائلا : إن العرب قد سموا إلى هذه الدرجة غير المعروفة تقريبا عند القدماء » .

٥١ – ثم أضاف كوستاف لوبون قائلا : « وقال سيديو Sedillot : إن الذى يعرف بصورة خاصة بمدرسة بغداد فى أول نشأتها إنما هو الفكرة العلمية الحقيقية التى تتحكم فى دراستها ، وإن القواعد التى كانت تدرس من قبل الأساتذة هى :

– الانتقال من المعلوم إلى المجهول .
– والفهم الدقيق للحقائق ، كى ينتقل بعد ذلك من المسببات Effets إلى الأسباب Causes
– وأن لا يقبل إلا ما برهن عليه الاختبار .

« وأن العرب فى القرن التاسع من الميلاد كانت لديهم هذه الطريقة الخصبة ، وهى التى انتقلت بعد زمن طويل جدا إلى أيدى المحدثين لتكون الواسطة لأجمل ما كان منهم من اكتشافات . . . اختبر ولاحظ تلك كانت طريقة العرب . . . واقرأ فى الكتب واقتصر على ترديد رأى الأستاذ تلك كانت طريقة أوروبة فى القرون الوسطى ، والفارق بين الطريقتين هو أمر أساسى جدا . ولن يستطاع تقدير قيمة العرب العلمية بصورة

كاملة إلا بعد التثبت منها بالنفس . . . فالعرب إذن قد اختبروا ، وكانوا أول الناس فى العالم ، ووحدهم زمنا طويلا الذين عرفوا الشأن الهام لهذه الطريقة » .

٥٢ – ثم قال كوستاف لوبون : « ولقد كتب دى لامبر Delambre فى كتابه تاريخ الفلك فقال : إذا عددنا بجهد اثنين أو ثلاثة من الملاحظين فيما بين اليونان ، فإنه يرى على العكس من ذلك عدد كبير منهم عند العرب . أما فى الكيمياء فإنه لا يستطاع ذكر أحد ما من الملاحظين عند اليونان ، بينما هم عند العرب يعدون بالمئات . . . وإن اعتياد العرب على الاختبار قد أسبغ على دراساتهم هذه الدقة وهذا الإبداع اللذين لا يمكن أبدا أن نتوقع وجودهما عند الرجل الذى ما درس الحقائق إلا فى الكتب ، ولم يخطئهم الإبداع إلا فى علم واحد هو الفلسفة ، حيث كان الاختبار فيها عندئذ مستحيلا » .

٥٣ – ثم قال كوستاف لوبون : « إن الطريقة الاختبارية التى جاء بها العرب داشنة – أى لم يستعملها أحد قبلهم – توجب ضرورة إيصالهم إلى اكتشافات هامة . وإن التحليل

الذى سنقوم به لدراساتهم العلمية سيثبت لنا فى الواقع أنهم قد حققوا من الاكتشافات فى ثلاثة أو أربعة عصور أكثر مما حققه اليونان فى زمن أطول جدا . وإن هذا المستودع من العلوم الماضية ، الذى استلمه البيزنطيون قبل العرب ، ولكن دون أن يستفيدوا منه شيئا منذ زمن بعيد . . قد نقله العرب إلى من جاء بعدهم فى ثوب مجدد كامل التجديد » .

٥٤ - ثم أضاف كوستاف لوبون قائلا : « إن دور العرب لم يقتصر فقط على ترقية العلوم باكتشافاتهم ، بل عملوا على نشرها بواسطة جامعاتهم وبواسطة مؤلفاتهم . وإن التأثير الذى أحدثوه فى أوروبة من هذه الناحية الأخيرة قد كان عظيما جدا . وسوف نرى فى الفصل الخاص المعقود لدراسة هذا التأثير أن العرب قد كانوا فى مدة عصور عديدة هم وحدهم الأساتذة الذين عرفتهم الأمم النصرانية ، وأننا اليهم وحدهم مدينون فى معرفة القديم اليونانى اللاتينى ، وأن التعليم فى جامعاتنا لم يتوقف عن الاعتماد على ترجمة الكتب العربية إلا فى الأيام الأخيرة » .

٥٥ - وقال ليبرى Libri فى هذا الصدد من تأثير

الحضارة الإسلامية فى الحضارة الأوروبية : « ارفعوا العرب من التاريخ تتأخر النهضة فى أورربة قرونا عدة » .

وقال فلوريان أيضا : «كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس ، وسعيهم فى ترقية العلم والفن . ولا نبالغ إذا قلنا إن أوروبة مدينة لهم بخدمتهم العلمية ، تلك الخدمة التى كانت العامل الأول والأكبر فى نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد » .

وقال ويلز أيضا فى هذا الصدد : «كانت طريق العربى أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة ، وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق ، غير تارك منها شيئا فى ظل الإبهام . وأن هذه الخاصة التى جاءتنا نحن الأوروبيين من اليونان وهى نشدان النور ، إنما جاءتنا عن طريق العرب ، ولم تهبط على أهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين » .

٥٦ – وكذلك يعترف البارون دى فو قائلا : « إن الرومان لم يحسنوا القيام بالميراث الذى تركه اليونان ، وان العرب كانوا على خلاف ذلك : فقد حفظوه وأتقنوه ، ولم يقفوا فيه عند

هذا الحد ، بل تعدوه إلى ترقيته وطبقوه ، باذلين الجهد فى تحسينه وإنمائه ، حتى سلموه للعصور الحديثة » .

وقال سيديو : « إن إنتاج أفكار العرب الغزيرة ، ومخترعاتهم النفيسة تشهد بأنهم أساتذة أهل أوروبة فى جميع الأشياء » .

وقال الدكتور سارطون من علماء أمريكة وبحاثيهم : « إن بعض الغربيين الذين يجربون أن يستخفوا بما أسداه الشرق إلى الحضارة يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً مّا . . هذا خطأ . . بل إن العرب والمسلمين كانوا أعظم معلمين فى العالم فى القرون الثلاثة : الثامن والحادى عشر والثانى عشر للميلاد » .

٥٧ – هذا ولا ندرى ماذا سيكون نصيب المدنية الحاضرة بأجمعها اليوم ، وكلها قائمة على الحسابات السريعة والرياضيات الدقيقة ، لو ظلت أوروبة وأمريكة ترقم أعدادها بالأحرف اللاتينية السبعة :

"M, D, C, L, X, V, I" ، ولم تأخذ الأرقام العربية

العشرة التى تحمل اسمها حتى اليوم فى قواميسهم ، حيث يعبرون عنها بكلمة ، شيفر آراب "Chiffres Arabes" . وإن كلمة « شيفر » كما تقدم معنا سابقا مأخوذة من كلمة « صفر » العربية ، ومنها دخلت على الغربيين فى لغاتهم ، وكان من ذلك « سيفر Cipher » بالانكليزية ، و « شيفر Chiffre » بالفرنسية ، و « تسيفر Ziffer » بالألمانية ، و « شيفرا Chiffra » بالإيطالية ، ثم تقلصت عن طريق الاختصار فأصبحت « زيرو "Zero" » كما يقول علماء الغرب أنفسهم .

٥٨ – لقد كانت الأرقام غير معروفة عند الرومان ، وكانوا يرمزون إليها بالأحرف السبعة التى أشرنا إليها وهى :

I ، أىْ حرف : إى ، ويساوى واحدا .
V ، أىْ حرف : ف ، ويساوى خمسة تشبيها بالكف ويحتوى على خمسة أصابع .
X ، أىْ حرف : ايكس ، وهو مركب من ضعف الحرف V ، ويساوى عشرة .
L ، أىْ حرف : إل ، ويساوى خمسين .

C ؛ أىْ حرف : ث ؛ ويساوى مئة ؛

D ؛ أىْ حرف : ده ؛ ويساوى خمسمئة ؛

M ؛ أىْ حرف : إم ؛ ويساوى ألفا .

وكان لا بد من استعمال هذه الحروف ومضاعفاتها ، وملاحظة عمليات الجمع والطرح فى تقديم حرف أو تأخيره ، بمفرده أو بمضاعفاته ، ليحيط الحاسب بالرقم المطلوب . وقد كانت اللحظة الخاطفة التى تكتب فيها الرقم ٨ بالأرقام العربية يستلزم منك أضعافها لكتابة نفس الرقم المطلوب بالأحرف اللاتينية فى الزمن وفى المكان كما ترى : ٨ = VIII

٥٩ – وكذلك لا ندرى ماذا سيكون نصيب الحضارة الحديثة بأجمعها اليوم لو لم يتمكن المسلمون من إضافة « الصفر » إلى الأرقام ؟ . . وبذلك قد أتموا الأرقام فى عشرة أرقام « بسيطة » بعد أن كانت الأرقام سبعة أحرف عند الرومان ، وتكتب حتى فى أصغر الأرقام بعد الواحد بأحرف « مكررة مضاعفة » على نحو المثل السابق فى رقم « ٨ » العربى حيث كان يكتب أولا بحرف V ، ثم يضاف إليه عن

اليمين الحرف I مكررا ثلاث مرات ليصبح هكذا VIII

وبذلك ختم المسلمون نبوءة الأرقام ليضيفوا إليها رقما أخيرا هو الصفر ، ولم يستطع أحد بعدهم حتى اليوم ، ونظن أنه لن يستطيع أحد حتى الأبد أيضا ، أن يضيف عليها رقما جديدا ، أو يشعر بالحاجة إلى إضافة شىء جديد فوق ما أضافه المسلمون ، بل إن اللغة الفرنسية التى دخلت عليها الأرقام العربية العشرة فى القرن العاشر للميلاد ليتخلوا بها عن الأحرف الرومانية ، قد سموها جميعها باسم « الصفر » كما تقدم معنا ، وبنفس لفظ الصفر « شيفر » العربى تسمية للكل باسم البعض ، إعجابا بهذا الاختراع الأخير ، وقالوا فيها « شيفر » بتحريف « الصاد » العربية إلى « الشين » الفرنسية .

٦٠ — ويعود الفضل فى تناول الأرقام العربية وشيوعها إلى الإمام محمد بن موسى الخوارزمى من رجال عصر المأمون ، وهو أول من ألف من المسلمين فى الحساب والجبر من رياضيى العرب ، وقد كان كتابه فى الحساب هو الأول من نوعه من

حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد نقل قديماً إلى اللاتينية تحت اسم « الغورتمى Algoritmi » وهو أول كتاب دخل أوروبة وبقى زمنا طويلا مرجع علمائها . بل ومن العجب أن يظل علم الحساب عدة قرون معروفا فى أوروبة باسم « الغورتمى » نسبة إلى الخوارزمى .

أما كتاب الخوارزمى فى علم الجبر فقد قال فيه كاجورى من علماء الغرب : « إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر » .

وليت شعرى ماذا سيكون شأن المدنية الحاضرة لو جردت علومها الرياضية من علم الجبر العربى الإسلامى الذى لم يكن إلاّ أثراً من آثار الواجب الإسلامى فى التأمل والتفكير والملاحظة فى كل شىء من خلق السموات والأرض والأنفس عملا بقوله سبحانه وتعالى :

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ،

وقوله :

« الشمس والقمر بحسبان »

وقوله فى الأرض :

« وأنبتنا فيها من كل شئ موزون » .

٦١ - وبعد ، ولولا ضيق المقام ، لاستطعنا أن نذكر للحضارة الإسلامية آثاراً أعظم وأبدع فى سائر العلوم والفنون والصناعة ، مما يكاد يدخل فى عداد المعجزات العلمية حينذاك ، لأنه لم يكن للمسلمين يومئذ من الأدوات والآلات الفنية المعروفة اليوم ليسهل عليهم هذه المهمة كتلك التى هى للعلماء المحدثين اليوم . ولكننا ننهى كلمتنا عن أثر المسلمين فى الحضارة الإنسانية بتعداد القليل من الكثير من أولياتهم .

٦٢ - فالمسلمون هم أول من استخرج بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار ليعرفوا منه مقدار محيط الأرض ، وكانوا بذلك أول من قام بقياس حقيق لمحيط الأرض بطريق علمى صحيح ، وقد قال فيه نللينو : « إنه أول قياس حقيقى أجرى مباشرة ، وأنه من أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة ، وقد كانت أقيستهم فى ذلك كله ، على قلة ما بأيديهم من الوسائل ، دقيقة ، صحيحة ، أو قريبة جداً من الصحيح .

وإن ثابت بن قرّة الحرانى استخرج حركة الشمس وحسب أول السنة النجمية ، فكان ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان ، وكان ما وصل إليه يزيد على أول السنة الحقيقى بمقدار هو أقل من نصف ثانية .

٦٣ – وكذلك كان للمسلمين أمثال هذه المعجزات العلمية فيما يتعلق بالرياضيات على اختلافها : فى الحساب والجبر والمثلثات والفلك ، حتى قال سخاو فى أحد رياضيي العرب محمد البيرونى : « إن البيرونى أعظم عقلية عرفها التاريخ »وقال لا لاند فى محمد البتانى : « إنه من العشرين فلكيا المشهورين فى العالم » .

٦٤ – وكذلك كان لهم أمثال ذلك فى كل من العلوم الطبيعية من : حيوان ، ونبات ، وجماد ، وما يتبعها من نظريات فى مباحث الضوء ، حتى قال فى ذلك الدكتور ماكس مايرهوف : « إن العرب قد أسدوا جزيل الخدمات إلى هذا العلم الذى تتجلى فيه عظمة الابتكار الإسلامى » . . وكذلك فيما وصلوا إليه لأول مرة فى تحديد « الثقل النوعى » تحديداً فنيا

دقيقا لكثير من الأجسام الجامدة . والسائلة ، والانتباه إلى ما بين السوائل نفسها من فروق فى ثقلها النوعى إذا كانت حارة ، ثم باردة ، ثم جامدة . . .

وكذلك كان لهم أمثال ذلك الإبداع فى علم الكيمياء ، وما قد تم لهم فيه من استحضار الكثير من المركبات والحوامض التى تقوم عليها الصناعة الحديثة كالمركبات التى تستعمل حتى الآن فى صنع الورق ، والحرير ، والمفرقعات ، والأصبغة ، والسماد الصناعى . . . وأما الطب فإن كتاب القانون لابن سينا كان حتى أواسط القرن السابع عشر المرجع الوحيد لمعاهد الطب وجامعات أوروبة . . . وأعظم بذلك كله من فضل : فيه آيات العقل ، والفكر ، ودلائل الإعجاز .

٦٥ – وبعد فهذه هى نبذة من أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية الحديثة من « الناحية العلمية » ، وقد وقفنا فيها كما ترون عند الكليات بما يتناسب مع المقام من أجل محاضرة وجيزة ، وأعطيناها حظاً أوفر مما سنعطيه فيما يلى لبقية النواحى الحضارية : الإنسانية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ،

والسياسية ، والتشريعية ، وذلك لأن « الناحية العلمية » هى المنطلق لكل حضارة إنسانية أولا ، ونرجو أن يجد فيها المستمع والقارئ مثلاً مرشدا إلى عظمة أثر الرسالة الإسلامية فى بقية النواحى الحضارية التى سنقتصر فيها جدا ، ونقف فيها عند معنى واحد كلى هو إسلامى وجديد فى كل ناحية من النواحى الحضارية الإنسانية الباقية .

من الناحية الإنسانية :

٦٦ – أما أثر الرسالة الإسلامية على الحضارة الإنسانية ومفاهيمها من « الناحية الإنسانية » فقد كانت أيضا شيئاً عجباً ، ولا تستبين أبعاد هذا الأثر إلاّ بالعودة قليلا وبإيجاز إلى استعراض ما قد كانت عليه حياة تلك الأمم والشعوب من مساوئ قبل الإسلام تتنافى مع كل مبادئ حقوق الإنسان الدولية اليوم/ كما قد أشرنا إليها فى مطلع هذه المحاضرة عند كلامنا عن موقف الإسلام من الدعوة إلى نظام عالمى إنسانى جديد .

٦٧ – وبالجملة فإن حياة الأمم كان ينخر فيها أولا من

داخل الأمم نفسها التمايز الطبقى فى كل أمة وشعب ، ثم التناحر على المصالح الضيقة - للعشيرة أو القومية ، تلك المصالح المتنافرة ، والقائمة على الأنانية والاستئثار والامتياز فى حق الحياة لدى كل الشعوب على حساب الآخرين . وهذا ما قد وضع العالم القديم فى حروب بربرية دائمة ، وخاصة الحروب الدولية الأخيرة التى أدركها الإسلام حين ظهوره فيما بين الشرق القديم الفارسى ، والغرب القديم اليونانى أو البيزنطى ، إذ نادى الإسلام فيهم جميعا مبتدئا بقومه ، ثم بالعالم أجمع ، معلنا على رؤوس الجميع كل حقوق الإنسان الاجتماعية ، والثقافية ، والاقتصادية ، تلك الحقوق العالمية الإنسانية التى لم يكتب لأحد أن يحيط بها أو يدعو إليها جميع العالم الإنسانى إلاّ فى هذا العصر الحاضر. وقد أوجزها الإسلام فيما يلى :

أولا - بوحدة الأسرة البشرية من غير تمايز فى الأعراق والأجناس ،

ثانيا - بحقهم جميعا فى الكرامة من غير تفاضل فيها أيضا ،

ثالثا - باعتبار الخلق كلهم عيال الله ، وأن أحبهم إليه أنفعهم لعياله ،

رابعا – بدعوتهم جميعا إلى الدخول فى السلم كافة . .

٦٨ – وقد سجلت هذه الدعوة الإسلامية بمبادئها الجديدة سبقا فعليا على جميع دعوات عالمنا الحديث فى هذه المعانى الإنسانية ، مما قد أشرنا إليه فى أوائل المحاضرة ، ولم تكن معروفة من قبل ولا مقبولة ، وتمكنت الدعوة الإسلامية من تطبيق هذه المبادئ فى مجتمعها الإسلامى الحضارى قبل أربعة عشر قرنا ، بينما لم يصل عالمنا الحديث إلى هذه المفاهيم الإنسانية إلاّ أخيراً ، ولم يستطع بعدُ تطبيقها فى أعظم مجتمعاته المتقدمة مثل الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث لا تزال الفوارق بين الألوان والأعراق تهيمن على حياة ذلك المجتمع العملاق ، على الرغم من وصايا الأمم المتحدة واتفاقاتها الدولية .

٦٩ – وبعد فكم كنا نتمنى التوسع والإفاضة فى شرح وقائع ذلك المجتمع الإسلامى وحضارته الإنسانية لولا خشية الإطالة . ويكفينا فى ذلك أن المجتمع الأول الذى أوجده الإسلام منذ بداية عهده وفى حياة « رسول الله صلى الله عليه وسلم » كان مجتمعاً بالفعل : لا فضل فيه لعربى على عجمى ،

ولا لأبيض على أسود ، كما نادى به رسول الله ، ودلل عليه فى صحبه المتقدمين ، فكان فيهم سلمان الفارسي الذى قال فيه رسول الله « صلى الله عليه وسلم » : سلمان منا أهل البيت ، وكان فيهم بلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وغيرهم من الأرقاء المعتقين أو من أصول غير عربية إلى جانب سادة قريش من أعلى قبائل العرب فى المكانة والاعتبار .

من الناحيــة الاجتماعية :

٧٠ – وأما أثر الرسالة الإسلامية على الحضارة الإنسانية من « الناحية الاجتماعية » فقد كان أيضاً من أحدث الآثار الجديدة الإنسانية على المجتمعات البشرية مما لم يكن معروفا أيضاً من قبل ، ولم تنتبه الأمم الحضارية الحديثة إليه إلاّ بدأً من أواخر العصر الماضى ، ألاَ وهو مبدأ « التكافل الاجتماعى » فى حق كل إنسان بالحياة الكريمة والتحرر من الحاجة والفقر ، وبعبارة أوضح هو تحميل أهل الرخاء فى مجتمع ما مسؤولية حياة المحرومين والعاجزين ، بعد أن كان المحروم فى كثير من المجتمعات قبل الإسلام معرضا لفقد حريته ، بل ولقتله أيضا كالمدين إذا

عجز عن وفاء دينه كما هو معروف فى حقوق روما القديمة ، وكما هو معروف عند بعض العرب من قتل أولادهم خشية من الإملاق والجوع . . .

فجاء الإسلام فى ذلك بالعجب العجاب ، حتى إنه أوجب دِيَة من مات جوعاً على جميع أهل قريته أو حيّه الذى يعيش فيه ، تماماً كدية القاتل .

٧١ – هذا ولم يجعل الإسلام هذا التكافل الاجتماعى « وصية يوصى بها فحسب » بل أوجب على المسلمين فى ذلك فريضة مالية اعتبرها حقا لأصحاب الحاجة على اختلاف أنواعها ، وأوجب القتال عند الاقتضاء لتحصيلها ، وأقام لهذه الفريضة المالية نظاما ماليا لم تعرفه أمة من الأمم قبل الإسلام ، بل اتخذ له صندوقا خاصا بهؤلاء المحتاجين ، وجعل الجباية لهذا الصندوق من أولى واجبات الدولة الجديدة .

٧٢ – والعجيب الذى تفرد به الإسلام فى هذا المقام أنه قد جعل من مصارف هذا الصندوق شراء الأرقاء وتحريرهم ، والوفاء عن الغارمين العاجزين عن وفاء ديونهم بعد أن كان

نصيب هؤلاء هو الاسترقاق والقتل فى عرف الأمم السابقة مما قد حرمه الإسلام تحريما مطلقا ، وأغلق بذلك أعظم أبواب الاسترقاق فى العالم القديم ، وما أعظم جريمة من يتهم الإسلام بعد ذلك بتشجيع الرق ، خاصة وقد جعل « تحرير الرقاب من أعظم القربات إلى الله » ، ولم يجعل الاسترقاق قط قربة من القربات .

٧٣ – هذا ويستفيد فوق ذلك من صندوق هذا التكافل الاجتماعى الجديد فى الإسلام كل من الشيخ العاجز ، والأرملة التى لا عائل لها ، والمريض ، والعاجز عن العمل لسبب من الأسباب ، واليتيم الذى لا مورد له .

كما يستفيد من هذا الصندوق كل من المصابين بكوارث الحريق ، والسيول ، وانهيار البيوت ، وأسر المرضى المحتاجين ، بل وأسر السجناء مهما كانت أسباب السجن .

وكذلك ينفق من هذا الصندوق على المعوقين لتأهيلهم لكسب الحياة ، ونحو ذلك من الإنفاق على جميع أصحاب الحاجات المعروفة منها وغير المعروفة ، بل والمستغربة فى مثل

تلك الأيام كما أشرنا إليه من تحرير الأرقاء ووفاء ديون العاجزين .

٧٤ – وهكذا فإن التكافل الاجتماعى فى الإسلام يعتبر من أعظم الإحداثات الجديدة التقدمية فى الحياة البشرية من أجل « نظام حياة جديدة » ، ولمجتمع إنسانى جديد كريم ومتكافل ، مما لم يعرف له مثيل لدى الأمم من قبل . وسوف يبقى هذا الإحداث الإسلامى فى المفهوم الإنسانى صفحة خالدة من آثار الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية ومفاهيمها .

من الناحية الاقتصادية :

٧٥ – وأما أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية من « الناحية الاقتصادية » فهو أيضا حدث عجيب لمجتمع إنسانى عظيم ، قد أوجب الإسلام فيه ديانةً العمل لعمارة الأرض فيما أوجب ، مما لم يكن فى قدرة أحد قبل الإسلام أن ينتبه إليه من حيث :

– تكريم العمل والحض عليه ،

– وإيجاب زيادة الإنتاج لخدمة المجتمع الإنسانى ،

– وعدالة التوزيع فيما بين أبناء البشر .

٧٦ – وهكذا فقد أوجب الإسلام العمل على كل إنسان ، وقال ليس للإنسان إلاّ ما سعى ، وعُنِيَ رسول الله « صلى الله عليه وسلم » نفسه بالعاطلين القادرين على العمل ، وأوجد لهم العمل عند الاقتضاء ، ونهاهم عن السؤال ، وقال لهم : « **اليد العليا خير من اليد السفلى** »والمراد باليد العليا اليد التى تنفق وتعطى المحتاجين ، وباليد السفلى اليد التى تطلب الصدقات ، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدا ورمت من العمل ، وأوجب العمل لزيادة الإنتاج بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ تنظيم العمل لا من قبل ولا من بعد حتى اليوم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : « **إذا أدركتْ أحدكم الساعة (أى القيامة) وفى يده فسيلة (أى نخلة صغيرة) فليزرعها** » . وبهذا النص الإسلامى والتوجيه الربانى يتفرد الإسلام فى الحض على العمل وزيادة الإنتاج من أجل الغير ، ولو كان الإنسان نفسه فى حالة يأس من الحياة . وهذا مما لم نعثر على مثيل له أيضا حتى اليوم فى نظام من أنظمة العمل التى تفرض زيادة الإنتاج كما فرضه الإسلام .

٧٧ – وأما عدالة التوزيع فى الإنتاج ، فإن الإسلام قد انفرد أيضاً بالعناية بالإنسان المحتاج فى المجتمع الإسلامى ، وأوجب له على المجتمع « حق الكفاية » فى السكن واللباس والطعام ووسائل الانتقال من دابة ونحوها حسب تطور الظروف ، ولم يرض الإسلام قط فى حق الفرد على المجتمع أن يوصله المجتمع إلى « حد الكفاف » أى الضرورة فقط ، معتبرا أن المحتاج يحق له فى مفهوم الحاجة أن يأخذ من مجتمعه بما يرفعه إلى ما فوق « حد الكفاف » من طعام وسكن ، وذلك باعطائه الحق أيضاً فى وسيلة من وسائل الانتقال كالدابة ونحوها ، وبذلك يتساوى جميع أبناء المجتمع فى مستوى الحياة الكريمة من غير وقوف عند « حد الكفاف » من ضرورات الطعام . ورحم الله الخليفة الثانى عمر بن الخطاب الذى قال فى هذا المقام : **« لو عشت إلى قابل لأخذت من فضول أموال الناس ووضعتها فى فقرائهم »**.

من الناحيـة السـياسـية :

٧٨ – وأما أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية من

« الناحية السياسية » فيكفينا فيها تشريع الإسلام لمبدإ الشورى الواجبة فى الحكم الإسلامى. وهو أيضا جديد على الإنسانية فى حضاراتها القديمة والحديثة ، إذ كل ما قد وصلت إليه الفلسفة حتى اليوم فى نظام الحكم أن أوجبت الحكم بالديموقراطية ، وعرفتها بأنها حكم الشعب بالشعب وللشعب. ولم تكن الديموقراطية فى أكثر أشكالها شيوعا إلا « حكم الأكثرية للأقلية » شاءت الأقلية أو لم تشأ ، أو حكم « الأقلية للأكثرية » فى الأشكال الأخرى ، وهو ما تقوم عليه النظم الاشتراكية وتدَّعى أيضاً بالنظم « الاشتراكية الديموقراطية » . . . وفى كلا الحالين كما ترون قد أقصى فريق صغير أو كبير من الشعب عن مقام الاعتبار فى الحكم ، وهو الأقلية فى الشكل الشائع ، أو الأكثرية فى النظم الاشتراكية.

٧٩ – أما إقرار مبدإ الشورى الواجبة فى الإسلام فهو إلزام بأخذ رأى الجميع أولاً من غير تمييز بين أقلية أو أكثرية ، ثم العمل بالرأى الذى ظهرت أرجحيته بعد التمحيص العقلى بين الرأيين ، لا عملاً بتعداد الأصابع المرفوعة. ونحن نعترف بأن

الصعوبة فى الشورى هو وضع قواعد التمحيص المرنة ، وليس ذلك بمستحيل على موازين العقل والمصلحة التجريبية ، ولن يكون عندئذ فى الترجيح وفقا لهذه القواعد شجب لفريق دون فريق ، وإنما هو الأخذ بما بدا أنه الأرجح من الآراء عقلا ومصلحة ، بعد أن وضعت آراء الجميع فى مستوى واحد من الاعتبار وأمام التمحيص من غير إهمال لرأى من الآراء .

٨٠ – وفى مبدإ الشورى هذا أيضا مبدأ جديد فى سياسة الحكم يزيل كل أثر للتسلط من قبل الأكثرية على الأقلية عملا بقواعد « الديموقراطية » المطلقة ، كما يزيل كل أثر من آثار التسلط من قبل الأقلية على الأكثرية عملا بقواعد « الاشتراكية الديموقراطية ». كما أن مبدأ الشورى هذا يرفع جميع أهل الرأى من أقلية أو أكثرية إلى مستوى واحد فى الاعتبار ، من غير أن يترك فى نفس أحد منهم شعورا بالإهمال أو بعدم الاكتراث به ، كما جرى عليه العهد النبوى . غير أن مبدأ الشورى هذا يستدعى كغيره بلا شك إعداداً تربويا خاصا ليكون للشورى أثرها المحمود . وسيكون الإعداد التربوى لقبول مبدأ الشورى المذكور

أسهل من الإعداد التربوى لقبول مبدأ تسلط الأكثرية على الأقلية ، أو قبول مبدأ تسلط الأقلية على الأكثرية ، خاصة وأن هذا الأخير لم يقم حتى الآن إلا على الحديد والنار .

من الناحية التشريعية :

٨١ – وبعد فإننا الآن نصل فى خاتمة كلمتنا إلى أثر الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية من « الناحية التشريعية » . وإن سلوكنا فى تقديم بقية النواحى من علمية ، وإنسانية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية على الناحية التشريعية الأخيرة ، يسهل علينا اختتام كلمتنا بكثير من الإيجاز ، وذلك اعتمادا أيضاً على كليات الشريعة الإسلامية وضوامنها التى أشرنا إليها سابقا ، عوضا عن الغوص فى أبوابها وفروعها وجزئياتها مما يتطلب مجلدات ، ولا يتفق بحال مع مقام المحاضرة .

٨٢ – وقد سبق معنا بمنتهى الإيجاز فى كل من النواحى المشار إليها أعلاه من أثر الرسالة الإسلامية فى مواضعها الحضارية الحيوية ما يمكن تلخيصه فيما يلى :

– أن الإسلام قد جاء فى كل ذلك بالجديد المطلوب غير المعروف من قبل .

– وأن جديد الإسلام فى ذلك قد قدم للبشرية فى مفهوم الحضارة فى كل من هذه النواحى الحيوية الأساسية ما لم يكن للحضارة الإنسانية عهد به من قبل حتى الآن .

– وأن هذه الإحداثات الإسلامية فى هذه النواحى الحضارية الحيوية هى وحدها اليوم الدالة على جميع المبادئ التقدمية التى يسعى إليها خبراء الأمم المتحدة ليقيموا عليها نظاما حيويا جديدا للإنسانية .

٨٣ – ولما كان الإسلام إنما جاء قبل أربعة عشر قرنا بهذه القيم والمفاهيم الحضارية التقدمية :

(أ) ليقضى بها أولاً على الأنظمة البالية السائدة بكل أسف حتى اليوم وخاصة فى التمايز بين الشعوب والطبقات فى حقهم فى الحياة الكريمة .

(ب) ولينشئ بها ثانيا نظاما عالميا جديدا للحياة التقدمية

الإنسانية ، لذلك فإن الإسلام قد أقام « شريعة » على قواعد جديدة فى مبادئها وضوامنها لهذا النظام الجديد ، وتعتبر بذلك من أعظم آثار الرسالة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية من « الناحية التشريعية » ، وذلك ما لم تصل إليه بعد أية شريعة وضعية من عالم الأمس وعالم اليوم .

٨٤ – وإن هذه المبادئ والضوامن قد سبق لنا أن أشرنا إليها من قبل أثناء كلامنا عن مميزات الدعوة الإسلامية لنظامها الجديد حيث قلنا فيها : إن الدعوة الإسلامية أقامت لها شريعة تمتاز على جميع ما عرفته الشرائع القديمة والحديثة من ضوامن . ولما كانت هذه الضوامن لمميزات الدعوة الإسلامية إنما هى الشريعة الإسلامية نفسها بمبادئها العامة وضوامنها ، لذلك نعيد ذكرها فى هذا المقام أيضا ، وهى تتلخص فى المبادئ والضوامن التالية :

أولا – أنها شريعة « عالمية » تنظر إلى شعوب البشرية على أنها أسرة بشرية واحدة ؛

ثانيا – أنها شريعة « إنسانية » لا تمايز فيها ما بين إنسان وإنسان فى الكرامة الإنسانية ؛

ثالثا – أنها شريعة « ترعى مصالح الحياة الإنسانية المتجددة » من غير جمود فيها على زمن أو مكان ، وأنها « لا فضل فيها لإنسان على إنسان ، ولا لشعب على شعب » فى حقهم جميعا فى الحياة الكريمة ،

رابعا – أنها قد شددت على « إقامة العدل » وجعلته أساس الملك تبعا للحق ، من غير امتياز فيه للشريف على الوضيع ، ولا للغنى على الفقير ، ولا للقوى على الضعيف . ورضى الله عن أبى بكر الخليفة الأول فى الإسلام الذى نادى فى الناس حين بويع بالخلافة فقال : « أيها الناس . . . إن القوى ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق للضعيف ، وإن الضعيف قوى عندى حتى آخذ له الحق من القوى » .

٨٥ – هذا ولسنا هنا فى حاجة إلى إضافة شىء ما على ما سبق من أثر الشريعة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية ومفاهيمها

غير حدث واحد هو من أعظم شواهد التاريخ فى آثارها فى المفهوم الحضارى من « الناحية التشريعية » حتى اليوم .

ويتلخص هذا الحادث فى خبر شكوى دويلة صغيرة هى دولة سمرقند كما ذكرها البلاذرى فى فتوح البلدان ، وكان الإسلام قد حررها فى حروبه الظافرة من الاحتلال الأجنبى لبلادها ، ولم يكره أهلها فى مقابل ذلك على الإسلام ، بل ترك لهم حق الخيار عملا بشريعة القرآن الكريم التى تقول : « لا إكراه فى الدين » وقد اختاروا البقاء على دينهم ، ولكنهم عقدوا صلحا مع المسلمين على حكم أنفسهم بأنفسهم ودفع جزية الحماية للجيش الإسلامى لقاء حمايتهم من عودة المحتل إلى بلادهم ، مع اشتراطهم على الجيش الظافر على بيزانس وفارس عدم بقائه فى بلادهم ، وكذلك فعل الجيش بعد تحريرهم وهم الضعفاء .

٨٦ – غير أن الجيش الإسلامى لم يلبس بعد أكثر من نصف قرن أن دخل البلاد رغما عن معاهدة الصلح ، متلمسا بعض المبررات التى لم يوافق عليها أهل البلاد المغلوبة . وما كان

من أهل هذه البلاد إلا أن أوفدوا وفداً إلى الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز فى دمشق وشكوا إليه احتلال الجيش الإسلامى خلافا لميثاق الصلح ، ولم يكن لديهم لدعم شكواهم غير صحيفة الصلح البالية منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وقد مضى عليها عهود بضعة من الخلفاء . وما إن سمع الخليفة الشكوى ورأى ميثاق الصلح ، حتى أمر بتأليف محكمة تسمع دعوى البلاد المغلوبة على الجيش الفاتح ؛ وكذلك كان ، وحكمت المحكمة الإسلامية ، وقاضيها المسلم على الجيش الإسلامى الفاتح بالجلاء عملا بنصوص ميثاق الصلح . . .

ويؤسفنا أن هذه المحكمة الدولية الإسلامية فى شؤون الحرب لم يستطع عالمنا الحديث الوصول إلى مثلها حتى اليوم ، على الرغم من منظمة الأمم المتحدة ومؤسساتها العالمية التى لا تزال حتى الآن عاجزة عن مجاراة الإسلام فى هذه العدالة الدولية عن طريق القضاء ، وخاصة فى الحكم على الجيش الإسلامى القاهر لمصلحة الشاكين المقهورين ؛ وفى ظل أعظم عهود الخلافة الإسلامية قوة وسلطانا . . وهذا ما يبرئ الحروب الإسلامية فى عهد سلطان الإسلام على نفوس المسلمين من أن تكون حروب

فتح ، واستيلاء ، وتوسعة لرقعة الملك ، وقهر للمغلوبين ، وإنما كانت فقط حروبا لتأدية رسالة إلٓهية عالمية إنسانية ، ولتحرير الإنسان من استغلال أخيه الإنسان ، والحماية حرية دعوة الخير التى جاء بها الإسلام مصداقاً لقوله تعالى « وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين » ، وفى ذلك يقول دوزى على لغة الفاتحين كلمته المشهورة : « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب » والحمد لله على شهادات المنصفين .

خاتمة

٨٧ – وبعد ، أيها السادة ، فهذا هو نموذج من آثار الشريعة الإسلامية فى الحضارة الإنسانية من الناحية التشريعية وفقا لقواعد النظام الإسلامى فى شريعته وخصائصه الكبرى الأخرى فيما قد تقدم بيانه من النواحى العلمية ، والإنسانية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية .

٨٨ – ونعتقد أننا بمثل هذا النظام فقط ، وبجميع نواحيه المذكورة ، نستطيع أن نضع حداً للأثرة وحب الذات ، وللتمايز فيما بين الأفراد والطبقات والجماعات فى حقهم جميعاً بالحياة

الكريمة ، وبه وحده نستطيع أن نقيم المجتمع الإنسانى الجديد السعيد الآمن ، على نحو ما قد نادى به محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك بإعلانه إعلاناً جازما بطلان التمايز فيما بين البشر بجميع شعوبه ، وأعراقه ، وأجناسه ، وأديانه ، وبوضعه لهم جميع الأحكام القانونية لضمانة النظام الجديد الإنسانى . ألا ولذلك فليعمل العاملون ، والحمد لله رب العالمين .